طرابلس في عيون خوسرو : " باب حديدي ذو صلابة فائقة يفتح نحو الشرق "

خلال قراءاتي عن التاريخ الفاطمي، وقعت على كتاب "**سفرنامه**"، "مدونة رحلة ناصر خوسرو، إلى سوريا، وفلسطين، ومصر، والجزيرة العربية وبلاد فارس، خلال سنوات الهجرة ٤٣٧-٤٤٤ (١٠٣٥-١٠٤٢)". هذا العمل، الذي نُشر في عام ١٨٨١، تم ترجمته والتعليق عليه من قبل شارل شيفر، مدير مدرسة اللغات الشرقية الحية، وعضو المعهد، وسكرتير أول ومترجم لدى الحكومة الفرنسية.

إن ناصر خوسرو (١٠٠٤-١٠٨٨)، الشاعر الفارسي، والفيلسوف، والعالم، والمسافر، كان معروفًا برحلاته عبر العالم الإسلامي في منتصف القرن الحادي عشر. ويُعتبر كتابه مصدرًا ثمينًا للمعلومات عن الجغرافيا، والثقافة، والسياسة، والمجتمع في تلك الفترة. ويلقي الضوء على التنوع الثقافي في العالم الإسلامي آنذاك.

يشكل حديثه ووصفه لطرابلس جزءًا رائعًا من سرد رحلاته. فهو يبرز الازدهار، والتنوع والحيوية الثقافية لهذه المدينة الساحلية التي كانت تحت حكم الفاطميين (السلالة الشيعية الإسماعيلية). تقدم شهادته العينية نظرة مفصّلة وحيّة عن الحياة المدنية والثقافية في طرابلس خلال القرن الحادي عشر. وتسلِّط الضوء على أهميتها في التبادلات التجارية والثقافية في ذلك الوقت. شهادته هذه ترسم صورة رائعة عن هذا الجزء من الساحل الشرقي للبحر المتوسط، مدينة رحبة ومتنوعة، مدينة مميزة في العالم الإسلامي.

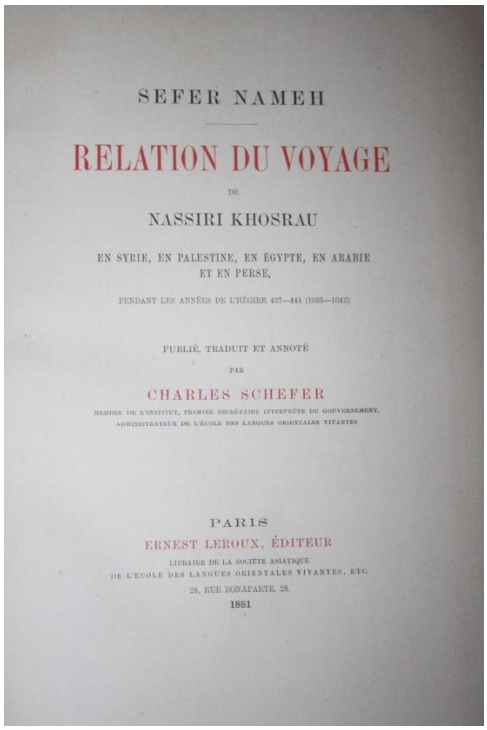

SEFER NAMEH

RELATION DU VOYAGE

DE

NASSIRI KHOSRAU

EN SYRIE, EN PALESTINE, EN ÉGYPTE, EN ARABIE
ET EN PERSE,

PENDANT LES ANNÉES DE L'HÉGIRE 437—444 (1035—1042)

PUBLIÉ, TRADUIT ET ANNOTÉ

PAR

CHARLES SCHEFER

MEMBRE DE L'INSTITUT, PREMIER SECRÉTAIRE INTERPRÈTE DU GOUVERNEMENT,
ADMINISTRATEUR DE L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES

PARIS

ERNEST LEROUX, ÉDITEUR

LIBRAIRE DE LA SOCIÉTÉ ASIATIQUE
DE L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES, ETC.

28, RUE BONAPARTE, 28.

1881

توقف ناصر خوسرو في طرابلس، وأدلى بشهادة فريدة عن المدينة، ربما تكون غير معروفة لدى العديدين. إليكم مقتطف يصف فيه طرابلس الفيحاء، بارزًا تألقها وثروتها، في القترة التي سبقت بكثير وصول الصليبيين ومن بعدهم المماليك. إنه جزء من التاريخ واجب علينا إعادة إحيائه.

رحلة ناصر خوسرو إلى الشرق الأوسط خلال السنوات ١٠٣٥-١٠٤٢ (مقتطف من جولته في طرابلس)

" [...] بعد أن مشينا حوالي خمسة فرسخ fersengs[١]، دخلنا طرابلس[٢]. من مدينة حلب إلى هذه المدينة قطعنا بالطريق التي سلكناها مسافة خمسين فرسخًا fersengs.

[١] الفرسنج: وحدة قياس قديمة كانت تستخدم في بلاد فارس وكذلك لدى المصريين وفي كثير من أنحاء آسيا، وكانت تعادل نحو خمسة آلاف متر.

[٢] تم تدمير مدينة طرابلس مرة أولى بسبب زلزال في عهد الإمبراطور ماركيان (٤٥٠-٤٥٦)؛ ثم مرة ثانية تحت حكم جستنيان في عام ٥٥٠. فتحت أبوابها للعرب في عام ٦٣٨، ونقل الخليفة معاوية بن أبي سفيان بن الخطاب بن أمية جالية كبيرة من اليهود. تم احتلالها خلال الحرب التي خاضها

كان ذلك يوم السبت ٥ شعبان (٦ شباط) عندما وصلنا إلى طرابلس. كانت المناطق المحيطة بالمدينة مغطاة بالحقول المزروعة والبساتين والحدائق. كانت هناك مزارع ضخمة من قصب السكر وكميات كبيرة من أشجار البرتقال ذات الثمار الحلوة والمرّة، وأشجار الموز، وأشجار الليمون، وأشجار النخيل. كنا في الوقت الذي يُجمع فيه عصير قصب السكر.

المدينة مبنية بطريقة تجعل ثلاثة من جوانبها مغمورة بالبحر الذي تصل أمواجه، عندما يكون هائجًا، إلى قمة الأسوار. الجزء من المدينة الذي يقع بجانب اليابسة محمي بسور وخندق كبير. وندخل إليها عبر باب حديدي ذي صلابة فائقة في اتجاه الشرق. الأسوار وكذلك الشرفات والمزاغل مبنية من الحجارة المنحوتة؛ الآلات الحربية موضوعة على قمم الأسوار. يُخشى في طرابلس من غارات اليونانيين الذين يهددون بالهجوم عليها بسفنهم. تبلغ مساحة المدينة ألف عرش[٣] مربع. المنازل مؤلفة من أربعة، وخمسة وحتى ستة طوابق. الشوارع والأسواق جميلة ونظيفة للغاية. يمكن القول إن كل سوق قصر مزين بشكل رائع. وجدتُ في طرابلس جميع أنواع المؤن، جميع الفواكه وجميع الأطعمة التي رأيتها في بلاد فارس، لكنها كانت أكثر وفرة بمئة مرة.

نيقفور وتزيميس في سوريا (٩٦٦-٩٦٩). وفي عام ٩٩٥ عندما فرض عليها الحصار الإمبراطور باسيل، كانت محتلة من قبل قوة عسكرية تابعة لخليفة مصر وكان قائدها يخضع لوالي دمشق.

السلطة المدنية والدينية كانت بيد أفراد عائلة عمار. عندما مر ناصر خسرو بطرابلس، كان يتولاها أبو طالب ابن عمار الذي توفي في ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) وخلفه ابن أخته جلال الدين أبو الحسن عمار الذي قاد الدفاع عن المدينة ضد الصليبيين في عام ١١٠٩ م (٥٠٣ هـ.).

وفي مذكراته حول مصر (باريس، ١٨١١، المجلد الثاني، الصفحة ٥٠٦)، قدم م. كاترمير ترجمة لمقطع من كتاب ابن فراط المتعلق بالمكتبة التي أسستها حرصت عليها عائلة عمار. كل الكتاب الشرقيين والغربيين في القرون الحادية عشر والثانية عشر متفقون على تمجيد ازدهار المدينة وخصب أراضيها. بالإضافة إلى مصانع الورق التي ذكرها ناصر خسرو، كانت طرابلس تمتلك، مثل جميع مدن الساحل، مصانع للزجاج. في الاتفاقية التي أبرمها بويمون السادس، أمير أنطاكية وكونت طرابلس، في ١ يونيو ١٢٧٧ مع ج. كونتاريني، دوج البندقية، نجد البند التالي: "وإذا كان البندقية تبيع الزجاج المكسور من المدينة، فهي ملزمة بدفع العشر".

[٣]الأرش: وحدة مساحة ما زالت تستخدم في مصر والسودان، تعادل حوالي ٤،٢٠٠ متر مربع (٠.٤٢ هكتار). لذلك، فإن الأرش يكون حوالي ١٧٥ متر مربع.

يقع الجامع الرئيسي في وسط المدينة؛ وهو جميل للغاية، مزين بشكل غني ومبني بصلابة فائقة. في الفناء، ترى قبة كبيرة تغطي حوضًا من الرخام يتوسطه نافورة ماء تتدفق من فوهة نحاسية. في السوق توجد نافورة يتدفق منها الماء بغزارة عبر خمسة صنابير. و جميع السكان للتزود منها، ويتدفق الفائض من الماء على الأرض ويصب في البحر.

يبلغ عدد سكان طرابلس الذكور، كما قيل لي، عشرين ألفًا. العديد من الأقاليم والقرى تتبع لهذه المدينة. يُصنع فيها ورق جيد مشابه لذلك المصنوع في سمرقند، ولكنه ذو جودة أفضل.

تقع طرابلس تحت سيطرة سلطان مصر. وقد قيل لي إن سيطرة سلطان مصر تعود لزمن محاولة هجوم كفار بيزنطية على هذه المدينة وتم صدهم من قبل المسلمين المصريين الذين ألحقوا بهم هزيمة قاسية. ألغى سلطان مصر الضرائب عن هذه المدينة، ويحتفظ فيها باستمرار بحامية عسكرية يقودها قائد عسكري مكلف بالدفاع عنها ضد أي محاولة عدوانية.

تعد طرابلس ميناءً تجاريًا مزدحمًا بالسفن الآتية من اليونان وبلاد الفرنجة وإسبانيا والمغرب. يدفعون للسلطان ضريبة عشرية والأموال الناتجة عن هذه الضريبة تُستخدم لتمويل ورعاية الحامية العسكرية. يمتلك السلطان في طرابلس سفنًا تجارية تسافر إلى اليونان وصقلية والمغرب للتجارة. أما سكان طرابلس فهم من الشيعة. وقد بنوا في جميع البلدان مساجد جميلة وقاموا في طرابلس ببناء مبانٍ تشبه الرباط (الخانات)، لكنها غير مأهولة. يُطلقون عليها "المشهد". لا يوجد أي مبنى خارج طرابلس، باستثناء اثنين أو ثلاثة من هذه "المشاهد" التي تحدثت عنها.

عدنا إلى الطريق وتوجهنا جنوباً بمحاذاة البحر.على بُعد فرسخ واحد رأيت قلعة مسماة "قلمون[٤]"، داخلها يوجد ينبوع."[...]

[٤]القلمون، تقع على بُعد ساعة مشيًا جنوب طرابلس، هي جزء من منطقة الكورة السفلى. إنها قرية محاطة ببساتين ومحمية بقلعة صغيرة. يتحدث بوليب عن مدينة القلمون الواقعة جنوبي طرابلس والتي دمرها أنطيوخوس. القس و. ثومسون، في سرد رحلته، يذكر كما ناصر خسرو، القلمون ويمدح جودة مياهها الرائعة. و. ثومسون: "ببليوثيكا ساكرا"، نيويورك ١٨٤٨، المجلد الخامس، رقمXX ، صفحات ٩-١٠.
القلمون هو أيضًا اسم لجبل في ضواحي دمشق.